تأثير الأدب العربي
فى الأدب الأوربى

للاستاذ عبد القادر على الجاعونى

المقدمة :

فى هذا العصر الذى تجتاح فيه مدنية الغرب الأقطار العربية فتنقل إليها علومها وآدابها ، يحسن بنا أن نلقى نظرة إلى الوراء ، لنرى كيفية تمثيل الآداب العربية للدور نفسه فى عصور مضت ، وكيف أن احتكاك العرب بالغربيين كان له أثر ظاهر فى آدابهم .

ومن البديهى أن يكون التأثير ضئيلا فى منطقة الآداب ، وأن يكون بارزاً ملموساً فى منطقة العلوم ، لأن الأمم تتعصب لآدابها وتأنف أن تدخل فيها عناصر أجنبية من تلقاء نفسها .

ولهذا رأينا العرب تهافتوا على العلوم الفارسية واليونانية وغيرها ، أما آدابهم فظلت محافظة على صبغتها العربية وقلما تأثرت بآداب هاتين الأمتين .

ولقد مثل الغرب نفس الدور ، فقد تهافت على نقل العلوم التى اشتغل بها العرب إبان نهضتهم العلمية ، ووقف مكتوفا أمام الآداب العربية إما مستغرباً أو مترفعاً إزاء الآداب الشرقية التى برزت أمامه بأثواب لم تألفها عينه من قبل ، وليس من المعقول أن يكون ذلك التأثير قد حصل دفعة واحدة بل إنه اتخذ سبيلا تدريجياً حمل بين طياته كثيراً من العناصر الفنية ، وشيئاً من الأفكار الشرقية ، وبدعاً من الظلال الشعرية ، وغير ذلك مما لا يقع تحت حصر .

تاريخ هذا التأثير فى العصور الوسطى :

(من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر)

لما حلت اللغات الوطنية « Vernacular » محل اللغة اللاتينية ، وشاع استعمالها بدلا منها ، ظهر فى فرنسا نوع جديد من الشعر يدل على وجهة اجتماعية جديدة ، وكان هذا الشعر شديد الشبه بنوع ظهر فى الأندلس العربية ، ولهذا شاعت النظرية القائلة بأن شعراء جنوبى فرنسا — بروفانس — تأثروا بالأدب الأندلسى .

وهذا الشعر الجديد الذى ظهر فى فرنسا ، قد صوّر الحب — كما صوره الغزل الغربى — بشكل جديد ، مثير للشعور ، غنىٌّ بالصور الخيالية ، مفعم برقة الاستعطاف وشدة التيتم الذى يقرب حد العبادة .

ومن المرجح أن هذه الطريقة فى الغزل لم يكن منشؤها العادات الاجتماعية فى ذلك العصر ؛ لأن المرأة كانت منحطة ، ولأن الفروسية تأبى أن تفرض على رجالها هذا النوع من التصنع الباطنى لمنافاته للروح الحربية ومخالفته مُثُل الكمال التى فرضتها الكنيسة فى تلك العصور .

وبقيت هذه النظرية قائمة حتى القرن التاسع عشر عند ما قام النقاد يطلبون وثائق خطية عليها وعندما أخفقوا فى إيجادها تحولوا إلى الطرف الآخر وقالوا بنفيها .

أما الأبحاث الحديثة فقد بينت لنا أن الشعراء المغنين تروبادور « troubadours » فى فرنسا قد أخذوا من الأندلس أساليب الغزل الجديدة .

قال الأستاذ « جب » « Gibb » فى تراث الاسلام « The Lsgacy of islam » فى القرن الحادى عشر بلغ الشعر قمة ازدهاره بعد أن مرت عليه قرون طويلة يتابع فيها نموه ، والغزل لا زال أكثر أنواعه شيوعا يفتتحون به كثيراً من قصائدهم . هذه كانت طريقة الجاهليين تبعها الشعراء فى عصور التمدن الإسلامى . إذ ذاك كثر الشعر الغنائى وصقلته المدنية ، وزادته أناقة ورقة مصطنعة ، وأصبح الغزل فى أقصى حالاته نوعاً من التصوف . وفى وسط هذا التهوس ظهر الشعراء العذريون ونظريتهم الأفلاطونية التى وجدت فى الأندلس مرتعاً خصباً ، وأشهر من دان بها ابن حزم صاحب « طوق الحمامة » الذى عدها من وسائل تزكية النفس .

هذه الروح الرومانطيقية الغالية هى التى انتقلت إلى منشدى القرون الوسطى وشعراء الغرب الغنائيين وولدت فيما بعد الشعر الخيالى . أما كيفية انتقالها فيقول الباحثون إن ذلك جرى بواسطة الزجل أو الشعر المانى الذى استنبطه عرب الأندلس ، وأدخلوا فيه شيئاً من روح الشعر الغربى وأسلوبه ، فنسج على منواله الأسبانيون ، وأصبح هذا الزجل الشعبى حلقة الاتصال بين الشعر الغربى وشعر أوربا الجنوبية . لقد عثروا مؤخراً على

مجموعة أشعار أسبانية من نوع « الفيلانسيكو » وهو الشعر العامى الذى لا يختلف عن الزجل العربى ، والمجموعة لابن قزمان الذى عاش فى أوائل القرن الثانى عشر . وكل ما فى شعره يدل على أصل عربى إلا اختلافاً قليلا فى طريقة الوزن الذى يعتمد على الحركات لا على المقاطع كالشعر الانكليزى .

وأخيراً كل القرائن تجتمع لتظهر أن هذا الغزل الجديد بروحه وطريقته كان مصدره الغزل العربى فى الأندلس ، ولا يخفى أن الغزل شاع فى الشعر العربى من أقدم عصوره .

فى صقلية وإيطاليا :

ولم ينحصر تأثير الشعر الأندلسى فى فرنسا فحسب ، بل تعداها إلى إيطاليا وصقلية ، ولقى الشعر العربى مشجعاً من الملوك والأمراء النرمنديين فقد استعمل الشعراء الإيطاليون أوزانه لنظم أشعارهم إلا أن « بترارك Petrareh » لم يرق له هذا الأدب الدخيل فثار عليه وعلى العرب فى كتاباته .

ومن النواحى التى أثر فيها الأدب العربى : ناحية القصص والأمثال فقد ثبت مؤخراً لدى الباحثين أن كثيراً من القصص والأمثال فى ألمانيا وفرنسا ترجع إلى أصول عربية ، وكما انتقلت الألفاظ على ألسنة السوّاح والتجار ، والمحاربون من الصليبيين كذلك تنوقلت القصص والحكايات والأمثال إلى آدابهم ، ويرجح أن أبو كاشيو « Boccaccio » قد نقل حكاياته الشرقية من مصادر شفهية .

ومن البديهى أن الأدب العربى ملىء بالأمثال والقصص ذات المغزى الأخلاقى والأدبى الذى تسرّب بعضه — فيما أعلم — من مصادر هندية أو فارسية أو يونانية ، ولقد صادفت هذه الأمثال قبولا مرضياً عند الغربيين فنقلها اليهود استحسانا إلى الآداب الغربية ، من ذلك كتاب السندباد المتحدر من أصل هندى ؛ ثم مجموعة حكم وأمثال ، وأقوال فلسفية ترجت إلى الأسبانية واللاتينية أو غيرها . وهذان الكتابان كان لهما أثراً خاص فى النثر الأسبانى الذى اعتمد على النثر العربى فى أول عهده وكانت الترجمة الأولى لكتاب (كليلة ودمنة) فى أوربا من العربية إلى الأسبانية . أما فى باقى اللغات فقد نقل عن ترجمة لاتينية قام بها أحد اليهود ثم انتشرت فى الأقطار الأوربية .

وأخيراً وصلت بعد تغيير وتحوير إلى اللغة الفرنسية تحت اسم جديد أمثال « بيدبا » المنقولة رأساً عن الفارسية وكانت أحد المصادر التى استقصى منها لافونتين الشهير أمثاله الموضوعة على ألسنة البهائم .

وعرف الأسبان فن المقامات عند العرب فنسجوا على منوالها فى بعض رواياتهم ، وفى جملة ما وضعوه كتاب يدعى « الفارس سيفار » يروى سلسلة مغامرات مقتبسة من أصول عربية .

ولا تزال تراقب الباحثين فى إثبات ما لرسالة الغفران من التأثير فى الآداب الغربية ، إذ المظنون أنها كانت أحد العناصر التى أدخلها « دانتى » فى تأليفه رواية « الكوميديا الآلهية » .

* * *

ثم كان عصر الانبعاث ، وهو عصر إحياء الآداب اليونانية القديمة والانصراف عما سواها ، ولم يلبث الناس أن سئموا الأنظمة البيانية وجنحوا إلى الخيال والألوان . ففى سنة ١٧٠٤ ترجمت روايات ألف ليلة وليلة » إلى الفرنسية وكان هذا نتيجة للأسفار ، وبدء الاستعمار فى الشرق ونتيجة انجذاب الغربيين بسحر الشرق الذى ما زال يستهويهم بغرائبه وأسراره والوانه الزاهية قال مارتان فى كتابه : « الشرق فى الأدب الفرنسى » إن دراسة الشرق فى أوربا ابتدأت فى القرن السابع عشر ، وتكوّنت ونمت فى القرن الثامن عشر الذى يعد بحق عصر الأدب الشرقى فى أوربا . هذا القرن الذى كثر فيه البحث العلمى الجاف ، وكثرت فيه الويلات والانقلابات فكان أهله متعطشين إلى الخيال ، ولذا كثر فيه التأليف فى موضوعات شرقية وامتلأت الروايات بأبطال شرقيين ، فوضع « راسين » مثلا روايته بايزيد ثم ظهرت روايات « ڤولتير » التمثيلية الشرقية والرسائل الفارسية لمونتسكيو وفى انكلترا ظهرت «رؤيا مرزا» و « راسلاس » .

على أن هذه التآليف المقلّدة كانت على جانب من الضعف والركاكة ، ولهذا يهملها تاريخ الأدب العربى لأنها شوهت قسما

من صفحاته . وكان لحركة الاستشراق التي بدأت في فرنسا صدى في أوربا ، وكانت ألمانيا أسبق الجميع إلى اقتباس بعض مظاهر الأدب الشرقي . وقام كثيرون من شعراء ألمانيا « الرومانطيقيين » يستوحون الخيال الهندي والفارسي وكان قائد الحركة هردر « Herder » وبعد « Iehlegel » ، « Hammer » وكان « جوته » أول من اعتمد الأسلوب الخيالي الشرقي لأنهم أرادوا أن يتعزوا بالخيال عن الحقائق المؤلمة . على أن تآليفهم الأدبية لم تكن ذات قيمة تذكر لأن التقليد غلب عليها ، إلا أنها أدّت للأدب خدمة جلّى إذ فتحت للأدباء باباً جديداً ما يزال يلجه الكثيرون .

أما في فرنسا ، فقد كتب « فكتور هوجو » قصائده المعروفة « بالمشرقيات » « Les Oientales » وصدرها بهذه الجملة « في عهد لويس الرابع عشر كان جميع الناس « هلينيين » أي طلاب الثقافة اليونانية ؛ أما اليوم فجميعهم مستشرقون أي طلاب للثقافة الشرقية » ، لكنه مع شغفه بالثقافة الشرقية لم تبلغ معرفته بها الحد الذي وصل إليه الكتاب الألمان أمثال غوتي وسواه .

وفي انجلترا نرى نفس هذه الحركة التي تهتم بالسطحيات ، ولا تتغلغل إلى جوهر الأشياء ؛ فهناك قام سكوت يسعى لإبراز رواياته الشرقية بحلّة شرقية . واقتدى به غيره من الروائيين كما فعل بيرون قبل ذلك ، ونجح في تحبيب الشرق إلى الغربيين ، وتبعه في ذلك مور في روايته « Galla Rookh »

في هذه الأحوال جميعها أخطأ أدباء الأدب الغربي فهم الأدب الشرقي ، واستعملوه للتزيين والتلوين أي أخذوا منه القشور وأنكروا الحقائق المنطوية تحتها ، وأعرضوا عن الميراث المعنوي الذي قدمه الشرق للعالم . ومع هذا فالقرن التاسع عشر لم يعدم كاتباً يبين لنا الصلة الجوهرية بين الشرق والغرب في شخص فتزجرلد « ftitzogerald » فنقل « رباعيات عمر الخيام » إلى الانكليزية ، وقد أبدع في نقلها حتى قيل إنها إنكليزية بقدر ما هي فارسية .

الخلاصة :

هناك ثلاثة أدوار ظهر فيها تأثير الأدب الإسلامي في الغرب وجاء بنتائج متماثلة إن لم تكن متعادلة . أولها في العصور الوسطى ، ثم بعد مرور عصر الانبعاث في القرن الثامن عشر ، ثم في القرن التاسع عشر ، وكان التأثير على أشده في القرون الوسطى عندما اقتبس الغرب عن الشرق بعض العناصر الفنية التي دخلت في تكوين أدبه . أما بعد سيادة الأدب اليوناني فلم يأت الاحتكار إلا بنتائج ضئيلة ، وكانت المنتجات الأوربية الشرقية أشبه شيء بنوادر أو تحف غريبة تثير الفضول ولا تتعدى التقليد . هذا في القرن الثامن عشر ، أما في القرن التاسع عشر فقد ظهر في ألمانيا حركة مثمرة لم تدم طويلا . وفي سائر أوربا كان الناس في القرن الماضي ينظرون شزراً إلى كل ماهو أجنبي . وقد أسكرهم التبجح بالسيادة العالمية . أما في القرن الحالي فقد أخذوا يغيرون وجهة نظرهم ، ويشعرون أن دائرتهم مهما اتسعت فهي أضيق من أن تشمل العالم بأسره ، وتأكدوا بأن هناك خارج منطقتهم كنوزاً يجب أن تكتشف .

(القدس) **عبد القادر علي الجاعوني**
بكالوريوس في العلوم

ظهر هذا الأسبوع كتاب :

حكايات من الصين

كتبها بالانجليزية كاتب صيني

وعربها

عبده حسن الزيات المحامي

تطلب من المكتبات ، ومن مكتب المعرب بشارع

إبرهيم باشا رقم ١٠ بالقاهرة

ثمن النسخة عشرة قروش تضاف إليها أجرة البريد